مُتهجدًا ، وفي الصباح أخبرني خبرك .

وفي صلاة الفجر قابله الرجل مُبتسماً ، يقول : لقد وجدتُ المال ، فقال : كيف ؟ قال الرجل : حينما وقفتُ بين يديْ ربي في الصلاة تذكرت المكان وذهبتُ فوجدت مالي ، فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تُتم ليلتك مع ربك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

قوله : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ ومنها : ابدلت واستبدلتَ ، أي : رفعتُ آية وطرحتُها ، وجئت بأخرى بدلاً منها ، وقد تدخل الباء على الشيء المتروك ، كما في قوله تعالى :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

أي : تتركون ما هو خير ، وتستبدلون به ما هو أدنى .

وما معنى الآية ؟ كلمة آية لها معَانٍ متعددة منها :

- الشيء العجيب الذي يلْفت الأنظار ، ويُبهر العقول ، كما نقول : هذا آية في الجمال ، أو في الشجاعة ، أو في الذكاء ، أي : وصل فيه إلى حدٍّ يدعو إلى التعجُّب والانبهار .

– ومنها الآيات الكونية ، حينما تتأمل في كون الله من حولك تجد آياتٍ تدلُّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صنعته ، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) ﴾ [الشورى]

ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبدّل ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً .. (٢٣) ﴾ [الفتح]

– ومن معاني الآية : المعجزة ، وهي الأمر العجيب الخارق للعادة ، وتأتي المعجزة على أيدي الأنبياء لتكون حُجّة لهم ، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله .

ونلاحظ في هذا النوع من الآيات أنه يتبدّل ويتغيّر من نبي لآخر ؛ لأن المعجزة لا يكون لها أثرها إلا إذا كان في شيء نبغ فيه القوم ؛ لأن هذا هو مجال الإعجاز ، فلو أتيناهم بمعجزة في مجال لا عِلْمَ لهم به لقالوا : لو أن لنا علْماً بهذا لأتينا بمثله ؛ لذلك تأتي المعجزة فيما نبغُوا فيه ، وعلموه جيداً حتى اشتهروا به .

فلما نبغَ قوم موسى عليه السلام في السحر كانت معجزته من

نوع السحر الذى يتحدى سحرهم ، فلما جاء عيسى - عليه السلام - ونبغ قومه فى الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع ، فكان - عليه السلام - يبرىء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله .

فلما بُعث محمد ﷺ ، ونبغ قومه فى البلاغة والفصاحة والبيان ، وكانوا يقيمون لها الأسواق ، ويُعلقون قصائدهم على أستار الكعبة اعتزازًا بها ، فكان لا بُدّ أنْ يتحداهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه وهى القرآن الكريم ، وهكذا تتبدّل المعجزات لتناسب كُلٌّ منها حال القوم ، وتتحداهم بما اشتهروا به ، لتكون أدْعى للتصديق وأثبت للحجة .

- ومن معاني كلمة آية : آيات القرآن الكريم التى نُسمّيها حاملة الاحكام ، فإذا كانت الآية هى الأمر العجيب ، فما وجه العجب فى آيات القرآن ؟

وجه العجب فى آيات القرآن أن تجدَ هذه الآيات فى أمّة أمية ، وأنزلتْ على نبى أُمىٍّ فى قوم من البدو الرُّحل الذين لا يجيدون شيئًا غيرَ صناعة القول والكلام الفصيح ، ثم تجد هذه الآيات تحمل من القوانين والأحكام والآداب ما يُرهب أقوى حضارتين معاصرتين ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب ، فتراهم يتطلّعون للإسلام ، ويبتغون في أحكامه ما ينقذهم ، أليس هذا عجيبًا ؟

وهذا النوع الأخير من الآيات التى هى آيات الكتاب الكريم ، والتى نُسمّيها حاملة الاحكام ، هل تتبدّل هى الأخرى كسابقتها ؟

نقول : آيات الكتاب لا تتبدَّل ؛ لأن أحكام الله المطلوبة ممَّن عاصر رسول الله ﷺ كالأحكام المطلوبة ممَّنْ تقوم عليه الساعة .

وقد سُبق الإسلام باليهودية والمسيحية ، فعندنا أمر رسول الله ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة . اعترض على ذلك اليهود[1] وقالوا : ما بال محمد لا يثبتُ على حال ، فيأمر بالشيء اليوم ، ويأمر بخلافه غداً ، فإنْ كان البيت الصحيح هو الكعبة فصلاتكم لبيت المقدس باطلة ، وإنْ كان بيت المقدس هو الصحيح فصلاتكم للكعبة باطلة .

لذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ..﴿١٠١﴾﴾ [النحل]

فالمراد بقول الحق سبحانه :

﴿آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ..﴿١٠١﴾﴾ [النحل]

أي : جئنا بآية تدلُّ على حكم يخالف ما جاء في التوراة ، فقد كان استقبال الكعبة في القرآن بدل استقبال بيت المقدس في التوراة .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ..﴿١٠١﴾﴾ [النحل]

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢/٥٧٤) مرسلاً من حديث الزهري أن القبلة صرفت نحو المسجد الحرام في رجب على رأس ستة عشر شهراً من مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وأن اليهود أنشأت تقول : قد اشتاق الرجل إلى بلده ، وبيت أبيه ، وما لهم حتى تركوا قبلتهم يصلون مرة وجهاً ، ومرة وجهاً آخر .

أى : يُنزل كل آية حَسْب ظروفها : أمة وبيئة ومكاناً وزماناً .

وقوله : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

أى : اتهموا رسول الله ﷺ بالكذب المتعمد ، وأن هذا التحويل من عنده ، وليس وَحْياً من الله تعالى : لأن أحكام الله لا تتناقض .

ونقول . نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض فى الدين الواحد ، أما إذا اختلفتْ الأديان فلا مانعَ من اختلاف الأحكام .

إذن : فآيات القرآن الكريم لا تتبدّل ، ولكن يحدث فيها نَسْخ ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾ [البقرة]

وإليك أمثلة للنسْخ فى القرآن الكريم :

حينما قال الحق سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

جعل الاستطاعة ميزاناً للعمل ، فالمشرِّع سبحانه حين يرى أن الاستطاعةَ لا تكفى يُخفِّف عنّا الحكم ، حتى لا يُكلِّفنا فوق طاقتنا ، كما فى صيام المريض والمسافر مثلاً ، وقد قال تعالى :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا (٧) ﴾ [الطلاق]

فليس لنا بعد ذلك أنْ نلوىَ الآيات ونقول : إن الحكم الفلانى لم تَعُدْ النفس تُطيقه ولم يَعُد فى وُسْعنا ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم الوُسْع ويكلِّف على قَدْره ، فإنْ كان قد كلَّف فقد علم الوُسْع ، بدليل أنه سبحانه إذا وجد مشقة خفَّف عنكم من تلقاء نفسه سبحانه ، كما قال تعالى :

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ..(٦٦)﴾ [الأنفال]

ففى بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم ، قال تعالى :

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ..(٦٥)﴾ [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى عشرة ، فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضعفًا ، قال :

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ..(٦٦)﴾ [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى اثنين . فالله تعالى هو الذى يعلم حقيقة وُسْعنا ، ويكلفنا بما نقدر عليه ، ويُخفِّف عنَّا عند الحاجة إلى التخفيف ، فلا يصح أنْ نُقحم أنفسنا فى هذه القضية ، ونُقدِّر نحن الوُسْع بأهوائنا .

ومن أمثلة النسخ أن العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أن الوالد مُنْتَه ذاهب ، ويجعلون الحظ كله للأبناء على اعتبار أنهم المقبلون على الحياة .

وحينما أراد الحق سبحانه أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصية فقال :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ[1] لِلْوَالِدَيْنِ ..(١٨٠)﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٢١١) : « اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منة الموصى » .

فلما استقر الإيمان في النفوس جعلها ميراثاً ثابتاً ، وغيَّر الحكم من الوصية إلى خير منها وهو الميراث ، فقال تعالى :

﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ .. ﴿١١﴾ ﴾ [النساء]

إذن : الحق تبارك وتعالى حينما يُغيِّر آية ينسخها بأفضل منها .

وهذا واضح في تحريم الخمر مثلاً ، حيث نرى هذا التدريج المحكم الذي يراعي طبيعة النفس البشرية ، وأن هذا الأمر من العادات التي تمكَّنَتْ من النفوس ، ولا بُدَّ لها من هذا التدرُّج ، فهذا ليس أمراً عَقَديا يحتاج إلى حُكْم قاطع لا جدال فيه .

فانظر إلى هذا التدريج في تحريم الخمر : قال تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً[1] وَرِزْقاً حَسَناً ﴿٦٧﴾ ﴾ [النحل]

أهل التذوق والفهم عن الله حينما سمعوا هذه الآية قالوا : لقد بيَّت الله للخمر أمراً في هذه الآية ؛ ذلك لأنه وصف الرزق بأنه حَسَن ، وسكت عن السَّكَر فلم يصفه بالحُسْن ، فدلَّ ذلك على أن الخمر سيأتي فيه كلام فيما بعد .

وحينما سُئِل ﷺ عن الخمر ردَّ القرآن عليهم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن عباس : السَّكَر : الخمر . والرزق الحسن : جميع ما يُؤكل ويُشرب حلالاً من هاتين الشجرتين . قال ابن العربي : الصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة ، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء ، وتحريم الخمر مدني. نقله القرطبي في تفسيره (٥/٣٨٠٣ ، ٣٨٠٤) .

جاء هذا على سبيل النصح والإرشاد ، لا على سبيل الحكم والتشريع ، فعلى كل مؤمن يثق بكلام ربه أن يرى له مَخْرجاً من أسْر هذه العادة السيئة .

ثم لُوحِظ أن بعض الناس يُصلي وهو مخمور ، حتى قال بعضهم في صلاته : أعبد ما تعبدون[1] ، فجاء الحكم :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ..﴿٤٣﴾﴾ [النساء]

ومقتضى هذا الحكم أنْ يصرفهم عن الخمر معظم الوقت ، فلا تتأتى لهم الصلاة دون سُكْر إلا إذا امتنعوا عنها قبل الصلاة بوقت كافٍ ، وهكذا عوَّدهم على تركها معظم الوقت ، كما يحدث الآن مع الطبيب الذي يعالج مريضه من التدخين مثلاً ، فينصحه بتقليل الكمية تدريجياً حتى يتمكَّن من التغلب على هذه العادة .

وبذلك وصل الشارع الحكيم سبحانه بالنفوس إلى مرحلة ألفَتْ فيها تَرْك الخمر ، وبدأت تنصرف عنها ، وأصبحت النفوس مُهيَّئة لتقبُّل التحريم المطلق ، فقال تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ..﴿٩٠﴾﴾ [المائدة]

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (١/٥٠٠) سبب نزول هذه الآية أن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً ، قال فقرأ : « قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ..﴿٤٣﴾﴾ [النساء] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى نسخ آية وحُكْماً بما هو أحسن منه .

والعجيب أنْ نرى من علمائنا مَنْ يتعصَّب للقرآن ، فلا يقبل القول بالنسخ فيه ، كيف والقرآن نفسه يقول :

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ..(١٠٦)﴾ [البقرة]

قالوا : لأن هناك شيئاً يُسمَّى البداء[1] .. ففي النسخ كان الله تعالى أعطى حُكْماً ثم تبيَّن له خطؤه ، فعدل عنه إلى حُكْم آخر .

ونقول لهؤلاء : لقد جانبكم الصواب في هذا القول ، فمعنى النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه ، وبهذا المعنى يقع النسخ في القرآن الكريم .

ومنهم مَنْ يقف عند قول الحق تبارك وتعالى :

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ..(١٠٦)﴾ [البقرة]

فيقول : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ فيها علَّة للتبديل ، وضرورة تقتضي النسخ وهي الخيرية . فما علَّة التبديل في قوله : ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ ؟

أولاً : في قوله تعالى : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ قد يقول قائل : ولماذا لم يَأْتِ بالخيرية من البداية ؟

نقول : لأن الحق سبحانه حينما قال :

(١) قال السيوطي في الإتقان (٢/ ٦٠) : « أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء ، كالذي يرى الرأي ثم يبدو له ، وهو باطل لأنه بيان مدة الحكم كالإحياء بعد الإماتة وعكسه ، والمرض بعد الصحة وعكسه ، وذلك لا يكون بداء ، فكذا الأمر والنهي » وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٥١) : « المسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه » .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ .. ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]

وهذه منزلة عالية في التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ، شقّت(1) هذه الآية على الصحابة وقالوا : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فنزلت :

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [التغابن]

وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نسخت الآية الأولى معطوباً ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فمَنْ أراد أنْ يرتقي بتقواه إلى (حَقَّ تُقَاتِهِ) فبها ونعْمت ، وأكثر الله من أمثاله وجزاه خيراً ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الأولى :

﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ .. ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]

وإنْ كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قلة ، في حين أن الثانية :

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [التغابن]

وإنْ جعلت التقوى على قدْر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ،

---

(1) قال سعيد بن جبير : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين : ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [التغابن] فنسخت الآية الأولى . ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٧٧/٤) .

ومن هنا كانت الثانية خَيْرًا من الأولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع .

أما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أي : أن الأولى مثل الثانية ، فما وَجْه التغيير هنا ، وما سبب التبديل ؟

نقول : سببه هنا اختبار المكلّف في مدى طاعته وانصياعه ، إنْ نُقِل من أمر إلى مثله ، حيث لا مشقّةَ في هذا ، ولا تيسيرَ في ذاك ، هل سيمتثل ويطيع ، أم سيجادل ويناقش ؟

مثل هذه القضية واضحة في حادث تحويل القبلة ، حيث لا مشقة على الناس في الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولا تيسير عليهم في الاتجاه نحو الكعبة ، الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله[1] ، فكان من الناس مَنْ قال : سمعاً وطاعة ونفّذوا أمر الله فوراً دون جدال ، وكان منهم مَن اعترض وأنكر واتهم رسول الله بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضاً ما نراه في مناسك الحج مما سنّه لنا رسول الله ﷺ حيث نُقبل الحجر الأسعد وهو حجر ، ونرمي الجمرات وهي أيضاً حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هي لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل]

بل : حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وتقرير كلام جديد ،

(١) يقد قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] .

فالحق سبحانه وتعالى يُلغى كلامهم السابق :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل]

ويقول لهم : لا ليس بمفتر ولا كذاب ، فهذا اتهام باطل ، بل أكثرهم لا يعلمون .

وكلمة ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ هنا ليس بالضرورة أنْ تقابل بالأقل ، فيمكن أن نقول : أكثرهم لا يعلمون . وأيضاً : أكثرهم يعلمون كما جاء في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج].

هكذا بالإجماع ، تسجد لله تعالى جميع المخلوقات إلا الإنسان ، فمنه كثير يسجد ، يقابله أيضاً كثير حَقَّ عليه العذاب ، فلم يقُلْ القرآن : وقليل حَقَّ عليه العذاب .

وعلى فَرْض أن :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل]

إذن : هناك أقلية تعلم صِدْق رسول الله ﷺ في البلاغ عن ربه ، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله حينما اتهموه بالكذب ، ويعلمون صِدْق كل آية في مكانها ، وحكمة الله المرادة من هذه الآية .

فَمنْ هم هؤلاء الذين يعلمون في صفوف الكفار والمشركين ؟

قالوا : لقد كان بين هؤلاء قَوْم أصحاب عقول راجحة ، وفَهْم للأمور ، ويعلمون وجه الحق والصواب في هذه المسألة ، ولكنهم أنكروها ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (١٤) ﴾ [النمل]

وأيضًا من هؤلاء أصحاب عقول يفكرون في الهدى ، ويُراودهم الإسلام ، وكان لديهم مشروعَ إسلام يُعدون أنفسهم له ، وهم على علم أن كلام الكفار واتهامهم لرسول الله باطل وافتراء .

وأيضًا من هؤلاء مؤمنون فعلاً ، ولكن تنقصهم القوة الذاتية التي تدفع عنهم ، والعصبية التي تردّ عنهم كَيْد الكفار ، وليس عندهم أيضًا طاقة أنْ يهاجروا ، فهم ما يزالون بين أهل مكة إلا أنهم مؤمنون ويعلمون صدْق رسول الله وافتراء الكفار عليه ، لكن لا قدرةَ لهم على إعلان إيمانهم .

وفي هؤلاء يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ[1] مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [الفتح]

أي : تدخلوا على أهل مكة وقد اختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن

(١) الهدى : ما النبيحة تُهْدى إلى الحرم في الحج . [القاموس القويم ٢/٢٠٦] ومعكوفا : محبوسا عن أن يبلغ أماكن نحْره . [القاموس القويم ٢/٣٢] .

بالكافر ، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين دون علم .

﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

أى : لو كانوا مُميّزين ، الكفار فى جانب ، والمؤمنون فى جانب لَعذَّبْنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .

إذن : فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتهمونك بالكذب والافتراء فإنَّ غير الأكثرية يعلم أنهم كاذبون فى قولهم :

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١)﴾ [النحل]

وما داموا اتهموك بالافتراء فقُلْ رداً عليهم :

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يرد على الكفار افتراءهم على رسول الله ، واتهامهم له بالكذب المتعمد ، وأنه جاء بهذه الآيات من نفسه ، فقال له : يا محمد قُلْ لهؤلاء : بل نزَّله روح القُدُس .

والقدس : أى المطهّر ، من إضافة الموصوف للصفة ، كما نقول : حاتم الجود مثلاً . والمراد بـ « روح القُدُس » سفير الوحى جبريل عليه السلام ، وقد قال عنه فى آية أخرى :

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

وقال عنه :

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)﴾ [التكوير]

ويقول الحق سبحانه :

﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ .. (١٠٢)﴾ [النحل]

أي : أن جبريل لم يأتِ بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، فمحمد ﷺ لم يأتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل ، فالقرآن من عند الله ، ليس افتراءً على الله ، لا من محمد ، ولا من جبريل عليهما السلام .

وقوله تعالى :

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾ [النحل]

أي : ليُثبِّتَ الذين آمنوا على تصديق ما جاء به الرسول من الآيات ، أن الله تعالى أعلمُ بما يُنزل من الآيات ، وأن كل آية منها مُناسِبة لزمانها ومكانها وبيئتها ، وفي هذا دليلٌ على أن المؤمنين طائعون مُنصَاعون لله تعالى مُصدِّقون للرسول ﷺ في كُلِّ ما بلغ عن ربه تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾

وفي هذه الآية اتهام آخر لرسول الله ﷺ وافتراء جديد عليه ، لا يأنف القرآن من إذاعته ، فمَنْ سمع الاتهام والافتراء يجب أنْ يسمع الجواب ، فالقرآن يريد أنْ يفضحَ أمر هؤلاء ، وأنْ يُظهر إفلاس حُججهم وما هم فيه من تخبُّط .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقد سبق أنْ قالوا عن رسول الله « مجنون » وبرّأه الله بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

والخلقُ العظيم لا يكون في مجنون ؛ لأن الخُلُق الفاضل لا يُوضع إلا في مكانه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ [القلم]

وسبق أنْ قالوا : ساحر وهذا دليل على أنهم متفقلون يتخبَّطون في ضلالهم ، فلو كان محمد ساحراً ، فلِمَ لم يسحركم كما سحر المؤمنين به وتنتهي المسألة ؟

---

(١) الإلحاد : الميل . يقال : لحد وألحد ، أي : مال عن القصد [تفسير القرطبي ٥/٣٩٠٥] .

وسبق أنْ قالوا « شاعر » مع أنهم أدْرى الناس بفنون القول شعْراً ونثراً وخطابة ، ولم يُجرِّبوا على محمد ﷺ شيئاً من ذلك ، لكنه الباطل حينما يَلجّ في عناده ، ويتكبَّر عن قبول الحق .

وهنا جاءوا بشيء جديد يُكذِّبون به رسول الله ، فقالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

أي : أن رسول الله ﷺ يتردد على أحد أصحاب العلم ليعلمه القرآن فقالوا[1] : إنه غلام لبني عامر بن لؤي اسمه (يعيش) ، وكان يعرف القراءة والكتابة ، وكان يجلب الكتب من الأسواق ، ويقرأ قصص السابقين مثل عنترة وذات الهمة وغيرها من كتب التاريخ .

وقد تضاربتْ أقوالهم في تحديد هذا الشخص الذي يزعمون أن رسول الله ﷺ تعلّم على يديه ، فقالوا : اسمه « عداس » وقال آخرون : سلمان الفارسي ، وقال آخرون : بَلْعام وكان حداداً رومياً نصرانياً يعلم كثيراً من أهل الكتاب .. الخ .

والحق تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء ، ويُظهر إفلاسهم الفكري ، وإصرارهم على تكذيب رسول الله ﷺ فيقول :

﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) قاله المهدوي عن عكرمة . [ذكره القرطبي في تفسيره ٥/٣٩٠٤] . وذُكرتْ أقوال أخرى : أنه غلام للفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانياً . ومنها : أنه غلام عتبة بن ربيعة واسمه عداس . وقيل : عابس غلام حويطب بن عبد العُزّى . ويسار أبو فُكَيْهة مولى ابن الحضرمي ، وكانا قد أسلما .

اللسان هنا : اللغة التي يُتحدَّث بها .

ويُلحدون إليه : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يُعلِّم رسول الله ﷺ .

أعجمي : أي لغته خفية ، لا يُفصح ولا يُبين الكلام ، كما نرى الأجانب يتحدثون العربية مثلاً .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يقُلْ (عجمي) . لأن العجم جنس يقابل العرب ، وقد يكون من العجم مَنْ يجيد العربية الفصيحة ، كما رأينا سيبويْه[1] صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عَجمي .

أما الأعجمي فهو الذي لا يُفصح ولا يُبين ، حتى وإنْ كان عربياً . وقد كان في قبيلة لؤي رجل اسمه زياد يُقال له « زياد الأعجمي » لأنه لا يُفصح ولا يُبين ، مع أنه من أصل عربي .

إذن : كيف يتأتَّى لهؤلاء الأعاجم الذين لا يُفصحون ، ولا يكادون ينطقون اللغة العربية ، كيف لهؤلاء أنْ يُعلِّموا رسول الله ﷺ وقد جاء بمعجزة في الفصاحة والبلاغة والبيان ؟

كيف يتعلم من هؤلاء ، ولم يثبت أنه ﷺ التقى بأحد منهم إلا (عداس) يُقال : إنه قابله مرة واحدة ، ولم يثبت أنه ﷺ تردَّد إلى مطعم ، لا من هؤلاء ، ولا من غيرهم ؟

---

(١) سيبويه : هو عمرو بن عثمان الحارثي بالولاء ، أبو بشر ، إمام النحاة ، ولد في إحدى قرى شيراز (١٤٨م) . قدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد ففاقه ، وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح . توفي بشيراز ١٨٠ هـ عن ٣٢ عاماً (الأعلام - للزركلي ٥/٨١) .

كمـا أن ما يحـويه القـرآن الكريم من آيات وأحكام ومعـجـزات ومعلومات يحتاج في تعلُّمه إلى وقت طويل يتـتلمذ فيه محمد على يد هؤلاء ، وما جرَّبْتم على محمد شيئاً من هذا كله .

وهل يُعـقل أن مـا في القـرآن يمـكن أن يطويه صَـدْرُ واحـدٍ من هؤلاء ؟! لو حـدث لكان له من المكانـة والمنزلة بين قـومه مـا كـان للنبي ﷺ من منزلة ، ولأشـاروا إليه بالبنان ولذاع صيـتُه ، واشتُـهر أمره ، وشيء من ذلك لم يحدث .

وقوله تعالى :

﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]

أي : لغته ﷺ ، ولغة القرآن الكريم عربية واضحة مُبِينة ، لا لَبْسَ فيها ولا غموض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

الحق تبارك وتعالى في قوله :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. ﴿١٠٤﴾﴾ [النحل]

ينفي عن هؤلاء صفة الإيمان ؛ فكيف يقول بعدها :

﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. ﴿١٠٤﴾﴾ [النحل]

أليسوا غير مؤمنين ، وغير مُهْتدين ؟

قلنا : إن الهداية نوعان :

– هداية دلالة وإرشاد ، وهذه يستوى فيها المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله الجميع ، وأوضح الطريق للجميع ، ومنها قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت]

أى : أرشدناهم ودللناهم .

– وهداية المعونة والتوفيق ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن ، ومنها قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

إذن : معنى :

﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النحل]

أى : هداية معونة وتوفيق .

ويصح أن نقول أيضاً : إن الجهة هنا مُنفكّة إلى شيء آخر ، فيكون المعنى : لا يهديهم إلى طريق الجنة ، بل إلى طريق النار ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء]

بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ [النحل]

ولأنه سبحانه في المقابل عندما تحدّث عن المؤمنين قال :

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ [محمد]

أي : هداهم لها وعرَّفهم طريقها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : وإن افتريتم على رسول الله واتهمتموه بالكذب فإن الكذب الحقيقي أنْ تُكذّبوا بآيات الله ، ولا تؤمنوا بها .

ونلاحظ في تذييل هذه الآية أن الحق سبحانه لم يَقُلْ : وأولئك هم الكافرون . بل قال : الكاذبون . ليدل على شناعة الكذب ، وأنه صفة لا تليق بمؤمن .

ولذلك حينما سُئِل رسول الله ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : « نعم » . لأن الله قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. (٣٨) ﴾ [المائدة]

فما دام قد شرَّع حكماً ، وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر وارداً ومحتمل الحدوث .

وسُئل : أيزني المؤمن ؟ قال : « نعم » ، لأن الله قال :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ۝٢ ﴾ [النور]

وسُئِل : أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] .

والحديث يُوضِّح لنا فظاعة الكذب وشناعته ، وكيف أنه أعظم من كل هذه المنكرات ، فقد جعل الله لكل منها عقوبة معلومة في حين ترك عقوبة الكذب ليدل على أنها جريمة أعلى من العقوبة وأعظم .

إذن : الكذب صفة لا تليق بالمؤمن ، ولا تُتصوَّر في حقِّه ؛ ذلك لأنه إذا اشتُهِر عن واحد أنه كذاب لما اعتاده الناس من كذبه ، فنخشى أن يقول مرة : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فيقول قائل : إنه كذاب وهذه كذبة من أكاذيبه .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ﴾

---

(١) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت في عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً ، فأما سمية فإنها رُبطت بين بعيرين ، ووُجِيء قُبُلها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمت من أجل الرجال ، فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام .

وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، فأخبر النبي ﷺ بأن عماراً كفر ، فقال كلا ، إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : إنْ عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت . فأنزل الله تعالى هذه الآية . ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٦٢) وتفسير القرطبي (٣٩٠٧/٥) .

الحق سبحانه وتعالى سبق وأنْ تحدث عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين ، ثم تحدّث عن الذين يخلفون العهد ولا يُوفون به ، ثم تحدث عن الذين افتروْا على رسول الله والذين كذّبوا بآيات الله ، وهذه كلها قضايا إيمانية كان لابد أنْ تُثار .

وفي هذه الآية الكريمة يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان ليس مجرد أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فالقول وحده لا يكفي ولا بُدَّ وأنْ تشهدَ بذلك ، ومعنى تشهد أنْ يُواطيء القلب واللسان كل منهما الآخر في هذه المقولة .

والمتأمل لهذه القضية يجد أن القسمة المنطقية تقتضي أن يكون لدينا أربع حالات :

الأولى : أنْ يُواطيء القلب اللسان إيجاباً بالإيمان ؛ ولذلك نقول : إن المؤمن منطقيّ في إيمانه ؛ لأنه يقول ما يُضمره قلبه .

الثانية : أنْ يُواطيءَ القلب اللسان سلباً أي : بالكفر ، وكذلك الكافر منطقي في كفره بالمعنى السابق .

الثالثة : أنْ يؤمن بلسانه ويُضمرَ الكفر في قلبه ، وهذه حالة المنافق ، وهو غير منطقي في إيمانه حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان .

الرابعة : أن يؤمن بقلبه ، وينطق كلمة الكفر بلسانه .

وهذه الحالة الرابعة هي المرادة في هذه الآيةَ . فالحق تبارك وتعالى يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمان ، وما سبب هذا الكفر ؟ وما جزاؤه ؟

قوله :

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل]

هذه جملة الشرط تأخَّر جوابها إلى آخر الآية الكريمة ، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر ، فإما أن يكون عن إكراه لا دَخْلَ للإنسان فيه ، فيُجبر على كلمة الكفر ، في حين قلبه مطمئن بالإيمان .

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل]

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلّنا على أنه لا شيءَ عليه ، ولا بأسَ أن يأخذ المؤمن بالتقية ، وهي رخصة تقي الإنسان موارد الهلاك في مثل هذه الأحوال .

وفي تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة ، ونطقتْ كلمة الكفر وهي مطمئنة بالإيمان .

وفي الحديث الشريف : « رفع عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه »[1] .

ويذكر التاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمية أول شهيدين في الإسلام ، فكيف استشهدا ؟ كانا من المسلمين الأوائل ، وتعرّضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة الكفر مقابل

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٩٠٦) : « والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء ، قاله القاضي أبو بكر بن العربي . وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح . قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد ، وابن المنذر في كتاب الإقناع » .

العفو عنهما ، فماذا حدث من هذين الشهيدين ؟ صدَعا بالحق وأصرّا على الإيمان حتى نالا الشهادة في سبيل الله ، ولم يأخذا برخصة التقية .

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أخذ بها ، حينما تعرّض لتعذيب المشركين .

وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمار بن ياسر كفر ، فأنكر ﷺ هذا ، وقال :

« إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه ، وإن الإيمان في عمار قد اختلط بلحمه ودمه »[1] .

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكي ، ثم قص عليه ما تعرَّض له من أذى المشركين ، وقال : والله يا رسول الله ما خلّصني من أيديهم إلا أنّي تناولتك[2] وذكرت آلهتهم بخير ، فما كان من النبي ﷺ إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له « إنْ عادوا إليك فَقُلْ لهم ما قلت »[3] .

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة ، فراجعوا فيها

---

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية (١/١٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه » . وأورده الواحدي في أسباب النزول (ص١٦٢) .

(٢) أي : أنه تناول رسول الله ﷺ بالسب والشتم وذكره بالشر .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/١٧٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير . ثم تركوه . فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك شيء ؟ قال : شر ، ما تُرِكْت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان . قال : إن عادوا فعُدْ .

رسول الله ﷺ وقالوا : فما بال بلال[1] ؟ فقال : « عمار استعمل رخصة ، وبلال صدع بالحق » .

ولا شكَّ أن هاتين منزلتان في مواجهة الباطل وأهله ، وأن الصَّدْع بالحق والصبر على البلاء أعْلَى منزلة ، وأسْمَى درجة من الأخْذ بالرخصة ؛ لأن الأول آمن بقلبه ولسانه ، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر .

لذلك ، ففي حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة بصدق نُبوّته ، فقال لرجل : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول فيَّ ؟ فقال الرجل في لباقة : وأنت كذلك ، يعني أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحةً بنبوة هذا الكذاب .

فقابل آخر وسأله : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله . قال : وما تقول فيَّ ؟ فقال الرجل متهكماً : اجهر لأني أصبحت أصمُّ الآن ، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل . فلما علم رسول الله ﷺ خبرهما قال : « أحدهما استعمل الرخصة ، والآخر صدع بالحق »[2] .

---

(١) وذلك أن بلالاً هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يُعذّبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول : أحَدٌ أحدٌ ، حتى ملّوه ، ثم كتفوه وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشبي مكة . ذكره القرطبي في تفسيره (٣٩٠٨/٥) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٧٢/٥) وعزاه لابن أبي شيبة عن الحسن أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه فقال : إني أصمّ . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم . فأرسله . فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال : « أما صاحبك فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة » . وذكر ابن كثير في تفسيره (٥٨٨/٢) رواية تفيد أن الأول منهما هو حبيب بن زيد الأنصاري .

وقد تحدّث العلماء عن الإكراه في قوله تعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها ، على النحو التالى :

– إذا أكره الإنسان على أمر ذاتيّ فيه . كأن قيل له : اشرب الخمر وإلاّ قتلتك أو عذبتك قالوا : يجب عليه في هذه الحالة أنْ يشربها وينجو بنفسه ؛ لأنه أمر يتعلق به ، ومن الناس مَنْ يحصون الله بشربها . فإنْ قيل له : اكفر بالله وإلاّ قتلتك أو عذبتك . قالوا : هو مُخيّر بين أن يأخذ بالتقية هنا ، ويستخدم الرخصة التى شرعها الله له ، أو يصدع بالحق ويصمد .

– أما إذا تعلّق الإكراه بحقٍّ من حقوق الغير ، كأنْ قيل لك : اقتل فلاناً وإلا قتلتك ، ففى هذه الحالة لا يجوز لك قتْله ؛ لأنك لو قتلته لقُتِلْت قصاصاً ، فما الفائدة إذن ؟ .

وبعد أن تحدّث الحق تبارك وتعالى عن حكم مَنْ أكرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان ، يتحدث عن النوع الآخر :

﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

أى : نطق كلمة الكفر راضياً بها ، بل سعيدة بها نفسه ، مُنْشرحاً بها صدره ، وهذا النوع هو المقصود فى جواب الشرط .

﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾ [النحل]

فإنْ كانت الآيات قد سكتت عمَّنْ أكرِهَ ، ولم تجعل له عقوبة لأنه مكره ، فقد بيَّنت أن من شرح بالكفر صدراً عليه غضب من الله أى : في الدنيا . ولهم عذاب عظيم أى : فى الآخرة .

وكما رأينا فى تاريخ الإسلام نماذج للنوع الأول الذى أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صدْراً ، وهم المنافقون ، ومنهم مَنْ أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، ومنهم عبد الله ابن سعد بن أبى السرح من عامر بن لؤى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما استحقوه من العذاب السابق .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النحل]

استحب : أى آثر وتكلّف الحب ؛ لأن العاقل لو نظر إلى الدنيا بالنسبة لعمره فيها لوجدها قصيرة أحقر من أنْ تُحبَّ لذاتها ، ولَوجدَ الأغيار بها كثيرة تتقلّب بأهلها فلا يدوم لها حال ، ينظر فإذا الأحوال تتبدّل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى السُّقْم ، ومن القوة إلى الضعف ، فكيف إذن تستحب الدنيا على الآخرة ؟!

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أنْ نعطى كلاً من الدنيا والآخرة ما يستحقه من الحب ، فنحب الدنيا دون مبالغة فى حبها ، نحبها على أنها مزرعة للآخرة ، وإلاَّ ، فكيف نطلب الجزاء والثواب من الله ؟

لذلك نقول : إن الدنيا أهمّ من أنْ تُنسى ، وأتفه من أن تكون غاية ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص]

نفهم البعض الآية على أنها دعوة للعمل للدنيا وأخذ الحظوظ منها ، ولكن المتأمل لمعنى الآية يجد أن الحق سبحانه يجعل الدنيا شيئاً هيّناً مُعرَّضاً للنسيان والإهمال ، فيُذكِّرنا بها ، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب ، فأنا لا أقول لك : لا تنسَ الشيء الفلاني إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان ، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال في الإسلام .

ويكفينا وَصْف هذه الحياة بالدنيا ، فليس هناك وَصْفٌ أقلّ من هذا الوصف ، والمقابل لها يقتضي أن نقول : العُلْيا وهي الآخرة ، نعم نحن لا ننكر قَدْر الحياة الدنيا ولا نبخسها حقها ، ففيها الحياة والحسّ والحركة ، وفيها العمل الصالح والذكْرى الطيبة .. إلخ .

ولكنها مع ذلك إلى زوال وفناء ، في حين أن الآخرة هي الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التي لا يعتريها زوال ، ولا يهددها موت ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

أي : الحياة الحقيقية التي يجب أن نحرص عليها ونحبها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

ما معنى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) والقرآن يخاطبهم وهم أحياء يُرزَقُون ؟ قالوا : يُحييكم أي : الحياة الحقيقية الباقية التي لا تزول .

وقوله :

﴿عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

لقائل أن يقول : إن الآية تتحدث عن غير المؤمنين بالآخرة ، فكيف يُقال عنهم :

﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

نقول : من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله فيهم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ(٣٨)﴾ [النحل]

وأيضاً منهم مَنْ قال :

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

إذن : من هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة ، ولكنه يُفضِّل عليها الدنيا .

وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾ [النحل]

أي : لا يهديهم هداية معونة وتوفيق . وسبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، ويستوي فيها المؤمن والكافر ، وهداية معونة خاصة بالمؤمن .

إذن : إذا نفيتَ الهداية ، فالمراد هداية المعونة ، فعدم هداية الله انصبتْ على الكافر لكونه كافراً ، فكان كُفْره سبق عدم هدايته ، أو نقول : لكونه كافراً لم يهْدِه الله .

ولذلك يحكم الله على هؤلاء بقوله سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

طبع : أي ختم عليها ، وإذا تأملتَ الختْم وجدتَ المقصود منه أن الشيء الداخل يظلّ داخلاً لا يخرج ، وأن الخارج يظل خارجاً لا يدخل .

وفَرْقٌ بين ختم البشر وختم ربِّنا سبحانه ، فقصارى ما نفعله أن نختم الأشياء المهمة كالرسائل السرية مثلاً ، أو نريد إغلاق مكان ما نختم عليه بالشمع الأحمر لنتأكد من غلقه ، ومع ذلك نجد مَنْ يحتال على هذا الختم ويستطيع فضّه وربما أعاده كما كان .

أما إذا ختم الحق سبحانه وتعالى على شيء فلا يستطيع أحد التحايل عليه سبحانه .

فالمراد ـ إذن ـ بقوله تعالى :

﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]

أن ما فيها من الكفر لا يخرج منها ، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل فيها ؛ ذلك لأن القلب هو الوعاء الذي تصبّ فيه الحواس التي هي وسائل الإدراكات المعلومية ، وأهمها السمع والبصر .

فبالسمع تسمع الوحى والتبليغ عن الله ، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله فى كونه وعجيب صُنْعه مما يلفتك إلى قدرة الله ، ويدعوك للإيمان به سبحانه ، فإذا ما انحرفتْ هذه الحواسّ عما أراده الله منها ، وبدل أن تمدّ القلب بدلائل الإيمان تعطّلتْ وظيفتها .

فالسمع موجود كآلة تسمع ولكنها تسمع الفارغ من الكلام ، فلا يوجد سَمْعٌ اعتبارىّ ، وكذلك البصر موجود كآلة تُبصر ما حرم الله فلا يوجد بصر اعتبارى ، فما الذى سيصل إلى القلب - إذن - من خلال هذه الحواس ؟

فما دام القلب لا يسمع الهداية ، ولا يرى دلائل قدرة الله فى كونه فلن نجد فيه غير الكفر ، فإذا أراد الإيمان قُلْنا له : لا بُدَّ أن تُخرِج الكفر من قلبك أولاً ، فلا يمكن أن يجتمع كفر وإيمان فى قلب واحد ؛ لذلك عندنا قانون موجود حتى فى الماديات يسمونه (عدم التداخل) يمكن أن تشاهده حينما تملأ زجاجة فارغة بالماء ، فترى أن الماء لا يدخل إلا بقدر ما يخرج من الهواء .

فكذلك الحال فى الأوعية المعنوية .

فإنْ أردتَ الإيمان - أيها الكافر - فأخرجْ أولاً ما فى قلبك من الكفر ، واجعله مُجرّداً من كل هوى ، ثم ابحث بعقلك فى أدلة الكفر وأدلة الإيمان ، وما تصل إليه وتقتنع به أدْخله فى قلبك ، لكن أنْ تبحث أدلة الإيمان وفى جوفك الكفر فهذا لا يصحّ . لا بُدّ من إخلاء القلب أولاً وتجعل الأمريْن على السواء .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۝٤﴾ [الأحزاب]

وفي الأثر : « لا يجتمع حب الدنيا وحب الله في قلب واحد »[1]

لأن للإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان ، هكذا شاءت قدرة الله أن يكون القلب على هذه الصورة ، فلا تجعله مزدحماً بالمظروف فيه .

كما أن طَبْع الله على قلوب الكفار فيه إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعطي عبده مراده ، حتى وإنْ كان مراده الكفر ، وكأنه سبحانه يقول لهؤلاء : إنْ كنتم تريدون الكفر وتحبونه وتنشرح له صدوركم فسوف أطبع عليها ، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، بل وأزيدكم منه إنْ أحببتُمْ ، كما قال تعالى :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

فهنيئاً لكم بالكفر ، واذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم .

وقوله : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]

الغافل : مَنْ كان لديه أمر يجب أن يتنبه إليه ، لكنه غفل عنه ، وكأنه كان في انتظار إشارة تُنبِّه عقله ليصل إلى الحق .

ثم يُنهي الحق سبحانه الكلام عن هؤلاء بقوله تعالى :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

---

(١) ورد في معنى هذا عدة آثار :

- قال عيسى بن مريم : « كما لا يستقيم النار والماء في إناء ، كذلك لا يستقيم حب الآخرة والدنيا في قلب المؤمن » . أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (ص٢٤) .
- وقيل ليونس بن متى : « يا يونس إذا أحب العالم الدنيا نزعت مناجاتي من قلبه » أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (ص ١٥٦) .

فقوله تعالى :

﴿ لا جَرَمَ.. (١٠٩) ﴾ [النحل]

أي : حقاً ولا بُدّ ، أولا جريمة في أن يكون هؤلاء خاسرين في الآخرة ، بما اقترفوه من مُوجبات الخسارة ، وبما أتَوْا به من حيثيّات ترتَّبَ عليها الحكم بخسارتهم في الآخرة ، فقد حقَّ لهم وثبت لهم ذلك .

والمتتبع للآيات السابقة يجد فيها هذه الحيثيات ، بدايةً من قوْلهم عن رسول الله :

﴿إنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ.. (١٠١) ﴾ [النحل]

وقولهم : ﴿إنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ.. (١٠٣) ﴾ [النحل]

وعدم إيمانهم بآيات الله ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ، واطمئنانهم بالكفر ، وانشراح صدورهم به ، واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة .

هذه كلها حيثيات وأسباب أوجبتْ لهم الخسران في الآخرة يوم تُصفّى الحسابات ، وتنكشف الأرباح والخسائر ، وكيف لا يكون عاقبته خُسْراناً مَن اقترف كل هذه الجرائم ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فُتِنُوا.. ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل]

أى : ابتلوا وعُذِّبوا عذاباً أليماً ؛ لأنهم أسلموا .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل]

من رحمة الله تعالى أن يفتح باب التوبة لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم ، ومن رحمته أيضاً أن يقبل توبة مَنْ يتوب ؛ لأنه لو لم يفتح الله باب التوبة للمذنب ليئسَ من رحمة الله ، ولتحوّل - وإن أذنب ولو ذنباً واحداً - إلى مجرم يشقَى به المجتمع ، فلم يَرَ أمامه بارقة أمل تدعوه إلى الصلاح ، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاع .

أما إذا رأى باب ربه مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التائب ، ويغفر ذنب المسيء ، كما جاء في الحديث الشريف :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

بل ويزيده ربنا سبحانه وتعالى من فضله إنْ أحسن التوبة ، وندم على ما كان منه ، بأن يُبدِّل سيئاته حسناتٍ ، كما قال سبحانه :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري . قال النووي في شرح مسلم : « قال المازرى : المراد به قبول التوبة ، وإنما ورد لفظ بسط اليد لأن العرب إذا رضي أحدهم الشيء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه ، فخوطبوا بأمر حسي يفهمونه ، وهو مجاز ، فإن يد الجارحة مستحيلة في حق الله تعالى » .

لو رأى المذنب ذلك كان أدْعى لإصلاحه ، وأجْدَى في انتشاله من الوَهْدة التي تردَّى فيها .

إذن : تشريع التوبة من الحق سبحانه رحمة ، وقبولها من المذنب رحمة أخرى ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة]

أي : شرع لهم التوبة ودلَّهم عليها ، ليتوبوا هم .

فإنْ اغترَّ مُغْترٌّ برحمة الله وفضله فقال : سأعمل سيئات كثيرة حتى يُبدِّلها الله لي حسنات . نقول له : ومَنْ يدريك لعله لا تنطبق عليك شروط الذين يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وهل تضمن أنْ يُمهلك الأجل إلى أن تتوب ، وأنت تعلم أن الموت يأتي بغتة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾

قد يكون المعنى في هذه الآية على اتصال بالآية السابقة ، ومتعلق بها ، فيكون المراد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل]

يحدث هذا :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا .. (١١١) ﴾ [النحل]

أي : يوم القيامة . أو يكون المعنى : اذكر يا محمد :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا (١١١) ﴾ [النحل]

وهل للإنسان أكثر من نفس ، فتجادل إحداهما عن الأخرى ؟

الحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة في الدنيا والآخرة ، ولكنها تختلف في الدنيا عنها يوم القيامة ؛ لأن الحق سبحانه منحها في الدنيا الاختيار ، وجعلها حرة في أن تفعل أو لا تفعل ، فكان من النفوس : الطائعة ، والعاصية ، والمنصاعة ، والمكابرة .

فإذا ما وقفت النفس في موقف القيامة ، وواجهتْ الحق الذي كانت تخالفه علمت أن الموقف لا تفيد فيه مكابرة ، ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها ، فكأن نفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا في موقف ينادي فيه الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النفس يوم القيامة ، فقال تعالى :

﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام]

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت]

إذن : هي نفس واحدة ، تجادل عن نفسها في يوم لا تجزي فيه نفس عن نفس ، فكلٌّ مشغول بكَرْبه ، مُحاسَب بذنبه ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)
لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

وقوله تعالى :

﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾ [النحل]

الحق سبحانه يعطينا لقطة سريعة للحساب والجزاء يوم القيامة ، فالميزان ميزان عَدْل وقسطاس مستقيم لا يظلم أحداً .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وقوله تعالى : ﴿ وَتُوَفَّىٰ .. (١١١) ﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الجزاء من الله يكون وافياً ، لا نقص فيه ولا جَوْر ، فالجميع عبيد لله ، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم ، فإنْ رحمهم فبفضله ، وإنْ عذَّبهم فبعدله ، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا (١) مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ
اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾

---

(١) رَغَد العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) ﴾ [البقرة] أي : أكلاً طيباً موسّعاً عليكم فيه .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلَّم عن الإيمان بالله والإيمان بصدق رسوله في البلاغ عنه ، واستقبال منهج الله في الكتاب والسنة ، وتكلم عن المقابل لذلك من الكفر واللجاج والعناد لله وللرسول وللمنهج . أراد سبحانه أنْ يعطينا واقعاً ملموساً في الحياة لكل ذلك ، فضرب لنا هذا المثل .

ومعنى المثل : أن يتشابه أمران تشابهاً تاماً في ناحية معينة بحيث تستطيع أن تقول : هذا مثل هذا تماماً .

والهدف من ضرب الأمثال أنْ يُوضِّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أن نقول لك : هو مثل فلان - المعلوم لك - في الطول ومثل فلان في اللون .. إلخ من الصور المعلومة لك ، وبعد أن تجمع هذه الصور تُكوِّن صورة كاملة لهذا الشخص الذي لا تعرفه .

لذلك ، فالشيء الذي لا مثيلَ له إياك أن تضرب له مثلاً ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النحل]

لأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا نظير له ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وهو سبحانه الذي يضرب المثل لنفسه ، أما نحن فلا نضرب المثل إلا للكائنات المخلوقة له سبحانه .

لذلك نجد في القرآن الكريم أمثالاً كثيرة توضح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوي بالأمر الحسيِّ الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً في الإنفاق في سبيل الله ، وأن الله يضاعف النفقة ، ويُخلف على صاحبها أضعافاً مضاعفة ، فانظر كيف صوَّر لنا القرآن هذه المسألة :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح لنا المثل الأمر الغيبي المجهول بالأمر المحسِّ المُشَاهد الذي يعلمه الجميع ، حتى استقرَّ هذا المجهول في الذهن ، بل أصبح أمراً مُتيقَّناً شاخصاً أمامنا .

والمتأمل في هذا المثل التوضيحي يجد أن الأمر الذي وضَّحه الحق سبحانه أقوى في العطاء من الأمر الذي أوضح به ، فإنْ كانت هذه الأضعاف المضاعفة هي عطاء الأرض ، وهي مخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه وتعالى ؟

وكلمة (ضَرَبَ) مأخوذة من ضَرْب العملة ، حيث كانت في الماضي من الذهب أو الفضة ، ولخوف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النقاد أي : الخبراء في تمييز العملة يضربونها أي : يختمون عليها فتصير مُعتمدة موثوقاً بها ، ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب الله مثلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقرَّ في الذهن واعتُمِد .

فقال تعالى في هذا المثل :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ..(١١٢)﴾ [النحل]

الهدف من ضرب هذا المثل أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها، ولم يشكره عليها، ولم يُؤدِّ حقَّ الله فيها، واستعمل نعمة الله في معصيته فقد عرَّضها للزوال، وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة. فقيِّد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها. لذلك قال الشاعر:

إذَا كُنْتَ في نعمةٍ فَارْعَها ... فَإنَّ المعَاصِي تُزيلُ النِّعم

وحَافِظْ عليها بشُكْرِ الإلهِ ... فإنَّ الإلَه شَدِيدُ النِّقم

ولكن، القرية التي ضربها الله لنا مثلاً هنا، هل هي قرية معينة أم المعنى على الإطلاق؟ قد يُراد بالقرية قرية معينة كما قال البعض إنها مكة[1]، أو غيرها من القرى، وعلى كلٍّ فتحديدها أمر لا فائدة منه، ولا يُؤثِّر في الهدف من ضَرْب المثل بها.

والقرية: اسم للبلد التي يكون بها قِرىً لمن يمرُّ بها، أي: بلد استقرار. وهي اسم للمكان فإذا حُدِّثت عنها يراد المكين فيها، كما في قوله تعالى:

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ..(٨٢)﴾ [يوسف]

فالمراد: اسأل أهل القرية؛ لأن القرية كمكان لا تُسأل .. هكذا

(١) قاله ابن عباس ومجاهد. وقالت عائشة وحفصة رضي الله عنهما: هي المدينة. [ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧٤/٥] وقال القرطبي في تفسيره (٣٩٢١/٥): «قيل إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى».

قال علماء التفسير ، على اعتبار أن فى الآية مجازاً مرسلاً علاقته المحلية .

ولكن مع تقدُّم العلم الحديث يعطينا الحق تبارك وتعالى مدداً جديداً ، كما قال سبحانه :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ..(٥٣)﴾ [فصلت]

والآن تطالعنا الاكتشافات بإمكانية التقاط صور وتسجيل أصوات السابقين . فمثلاً يمكنهم بعد انصرافنا من هذا المكان أن يُسجِّلوا جلستنا هذه بالصوت والصورة .

ومعنى ذلك أن المكان يعي ويحتفظ لنا بالصور والأصوات منذ سنوات طويلة ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن القرية يمكن أنْ تُسأل ، ويمكن أن تجيب ، فلديها ذاكرة واعية تسجِّل وتحتفظ بما سجَّلته ، بل وأكثر من ذلك يتطلعون لإعادة الصور والأصوات من بَدْء الخليقة على اعتبار أنها موجودة فى الجو ، مُودعة فيه على شكل موجات لم تُفقد ولم تَضِع .

وما أشبه هذه الموجات بانداح الماء إذا ألقيتَ فيه بحجر ، فينتج عنه عدة دوائر تبتعد عن مركزها إلى أنْ تتلاشى بالتدريج .

إذن : يمكن أن يكون سؤال القرية على الحقيقة ، ولا شك أن سؤال القرية سيكون أبلغ من سؤال أهلها ؛ لأن أهلها قد يكذبون ، أما هي فلا تعرف الكذب .

وبهذا الفهم للآية الكريمة يكون فيها إعجاز من إعجازات الأداء القرآني .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً .. (١١٢) ﴾ [النحل]

آمنة : أي في مأمن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نِعَم الله تعالى على البلاد والعباد .

وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً .. (١١٢) ﴾ [النحل]

أي : لديها مُقوِّمات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مُستقرة مريحة ، والإنسان لا يطمئن إلا في المكان الخالي من المنغِّصات ، والذي يجد فيه كل مقومات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فطالما شبعت البطن ، وأمنتْ النفس استقرت بالإنسان الحياة .

والرسول ﷺ يعطينا صورة مُثْلى للحياة الدنيا ، فيقول :

« مَنْ أصبح معافىً في بدنه ، آمناً في سربه[1] ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[2]

ويصف الحق سبحانه هذه القرية بأنها :

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) السرب : النفس والمذهب . وقال ابن درستويه : وإنما المعنى آمن في أهله وولده . وقيل : السرب هنا القلب ، أي : آمنُ القلب . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/٢٤٩) ، وابن حبان (٢٥٠٣ ـ موارد الظمآن) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٨٩) وعزاه للطبراني وقال : « رجاله وُثقوا على ضعف في بعضهم » .

معلوم أن الناس هم الذين يخرجون لطلب الرزق ، لكن في هذه القرية يأتي إليها الرزق ، وهذا يُرجِّح القول بأنها مكة : لأن الله تعالى قال عنها :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

ومن تيسَّر له العيش في مكة يرى فيها الثمرات والمنتجات من كل أنحاء العالم ، وبذلك تمَّتْ لهم النعمة واكتملتْ لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهانئة ، فماذا كان منهم ؟ هل استقبلوها بشكر الله ؟ هل استخدموا نعمة الله عليهم في طاعته ومَرْضاته ؟ لا .. بل :

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

أي : جحدت بهذه النعم ، واستعملتها في مصادمة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وكان في الآية تحذيراً من الحق سبحانه لكل مجتمع كفر بنعمة الله ، واستعمل النعمة في مصادمة منهجه سبحانه ، فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

من الذوق ، تقول : ذاق وتذوَّق الطعام إذا وضعه على لسانه وتذوَّقه . والذَّوْق لا يتجاوز حلمات اللسان . إذن : الذوق خاصٌ بطعْم الأشياء ، لكن الله سبحانه لم يقُلْ : أذاقها طعم الجوع ، بل قال :

﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ..(١١٢)﴾ [النحل]

فجعل الجوع والخوف وكأنهما لباسٌ يلبسه الإنسان ، والمتأمل في الآية يطالع دقّة التعبير القرآني ، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف ، كيف ذلك ؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس في البطن ، فإذا لم يجد طعاماً عوّض من المخزون في الجسم من شحوم ، فإذا ما انتهتْ الشحوم تغذّى الجسم على اللحم ، ثم بدأ يتحت العظام ، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً ، وعلى الجلد هُزَالاً وذبولاً ، ثم يتكمش ويجفّ ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجي على الجلد ، وكأنه لباس يرتديه الجائع .

وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع ، ولكن من هيئته وشُحوب لونه وتغيُّر بشرته ، كما قال تعالى عن الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض :

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣)﴾ [البقرة]

وكذلك الخوف وإنْ كان موضعه القلب ، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك ، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص ، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله ، فيظهر الخوف عليه كثوب يرتديه .

وهكذا جَسَّد لنا التعبير القرآني هذه الأحاسيس الداخلية ، وجعلها محسوسة تراها العيون ، ولكنه أدخلها تحت حاسَّة التذوق ؛ لأنها أقوى الحواسّ .

وفي تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يُوحي بشمولهما الجسم

كله ، كما يلفّه اللباس فليس الجوع في المعدة فقط ، وليس الخوف في القلب فقط .

ومن ذلك ما اشتُهر بين المحبين والمتحدثين عن الحب أن محله القلب ، فتراهم يتحدثون عن القلوب ، كما قال الشاعر :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مَوَدَّتِي   فَأُحِسُّ مِنْهَا فِي الفُؤَادِ دَبِيبَا

فإذا ما زاد الحب وتسامى ، وارتقت هذه المشاعر ، تحوّل الحب من القلب ، وسكَن جميع الجوارح ، وخالط كل الأعضاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

لاَ عُضْوَ لِي إلاَّ وَفِيهِ صَبَابَةٌ   فَكَأَنَّ أَعْضَائِي خُلِقْنَ قُلُوبَا

وقوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل]

أي : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنّى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدودهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصُّدود والجحود والنكران ، وتعرّضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيّتوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً :

« اللهم اشْدُدْ وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف »[1]

فاستجاب الحق سبحانه لنبيه ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ،

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .